الاباضية في الميدان

«. . . بعد نشوء هذه الفرقة وتركز قواعدها على يد صاحبها الأول . . ظهر منها أئمة برزوا في العلم والدين حتى بلغوا درجة الاجتهاد . فسنوا لحزبهم مبادىء وقواعد خاصة ، وشرعوا له فقهفا وأصولاً في العبادات والمعتقدات تحوَّلت به من مجرد فرقة دينية إلى مذهب سني . وذلك لأن اتباعه حافظوا على صفاء الرسالة المحمدية في أصول مذهبهم ، ولم ينحرفوا عن النهج القويم الذي كان عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وصحابته البررة في سلوكهم وأمور معاشهم ، ولا اقترف ولاتهم إثماً ، ولا مارسوا في قيادتهم ظلماً ، ولا أي لون من ألوان العسف التي لم يبرأ منها القليل من الولاة سواهم . . » .

الاباضية في الميدان(1)(2)

بقلم : عبد العزيز المجذوب (تونسي)

الإباضية إحدى فرق الخوارج كما هو معروف . تنسب إلى صاحبها عبد الله بن إباض ، وهي أكثر هذه الفرق اعتدالا ، وأخفها أحكاما على مخالفيها ، وَأَلْيَنُهَا مبادىء ، فلا غرابة أن نراها باقية إلى اليوم ولها أتباعها ومريدوها في المشرق والمغرب من العالم العربي الإسلامي ، ونرى سواها من فرق الخوارج قد بادت ، حيث إنها لم تضمن لنفسها أسباب البقاء .

وأبرز ما يتصف به الإباضيون تمسكهم الشديد بالدّين ، بأداء فروضه ، وتجنب نواهيه إلى حد الغلو ، وبغضهم المفرط لأصحاب الظلم والفساد . وبفضل هاتين الصّفتين استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم عزا دينيا ومجدا سياسيا ، خلد ذكرهما التاريخ . وسنحاول الكشف عن ذلك قاصرين الحديث على الدّور الذي لعبته هذه الفرقة في بلاد المغرب عموما وبإفريقية على وجه أخص .

---

(1)الاستاذ عبدالعزيز المجذوب (تونسي)أستاذ جامعي من خريجي كلية الشريعة وأصول الدين بتونس .

(2) نقلا عن كتاب : المذهب الاباضي بإفريقيا . ط تونس . 1975 .

بعد نشوء هذه الفرقة وتركز قواعدها على يد صاحبها الأوّل في مطلع القرن الثّاني ظهر منها أئمّة أفذاذ برزوا في العلم والدّين حتّى بلغوا دَرَجَة الإجتهاد ، فَسَنّوا لحزبهم مبادىء وقواعد خاصة ، وَشَرّعُوا لَهُ فقها وأصولا في العبادات والمعتقدات تحوّلت به من حزب سياسي ومن مجرد فرقة دينية إلى مذهب سني . وذلك لأن أتباعه حافظوا على صفاء الرّسالة المحمّدية في أصول مذهبهم ، ولم ينحرفوا عن النهج القويم الّذي كان عليه رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - وصحابته البَرَرَةُ في سلوكهم وأمور معاشهم ، ولا اقترف وُلاَتُهم إثما ، ولا مارسوا في قيادتِهِمْ ظلما ، ولا أيّ لون من ألوان العسف التّي لم يبرأ منها إلاّ القليلَ من الولاة سواهم .

بل إنّ الظلم في حقهم كان مستحيلا ، لا لكونهم معصومين بل لأنّ رجل الدّين عندهم ورجل السيّاسة واحد ، والقائم بأمر النّاس فيهم هو الإمام نفسه . وتلك هي قاعدة الإسلام في الحكم ، التّي سار عليها الخلفاء الرّاشدون ، وعليها حافظوا ، ودونها نافحوا .

فمن الطبيعيّ أن ينتشر مذهبُ هذا شأنه ، وأن يُقبل على اتّباعه أناسٌ ببلاد المغرب لِيَجِدُوا في أكْنَافه الأمن والكَرامة ، وهم مَنْ سَئِمُوا حياةَ الاضطراب والظلم على أيدي الكثير من عمّال بني أميّة وبني العبّاس .

☆ ☆ ☆

كان ظهورهم بإفريقية أوائلَ القرن الثاني في عهد هشام بن عبد الملك[2] الّذي جدّد عهدَ أبيه وأسلافه الأوّلين بالتزامه سياسة الشدّة

---

(2) مدة خلافة هشام بن عبدالملك : 105 - 724/125 - 743 .

في مطاردة الخوارج والشيعة وملاحقتهم بالتّقتيل والإبادة .

ولعلّ أوّلَ دَاعية إباضيّ قَدمَ هذه البلادَ فَارّا من قبضة مُلاَحقيه هو سَلَمَةُ بن سعد ، الّذي عرف كَيف يتنقلُ بالبلاد ، وأيّ الشعاب يسلك حتّى يأمن ظلم الظّالمين ، ويضمن لِعَمَله التّوفيق ولرسالته الانتشار ، فاختار الطرق الجَبَليّة البعيدة عن الصحراء القَاحلة وأهوالها ، وعن المناطق السّاحلية الخَاضعة لسُلطة الولاة . وبجبال نفوسة ودَمَّر ونفزاوة وما والاها من المرتفعات والجبال ، وكلها مَناطقُ آهلة بالسكّان ، كثيرة العمران[3] ... أمكن له أن يستقرّ ويقوم في صفوف البربر بالدّعوة ، موضّحا للأذهان الصّورة الصّحيحة للإسلام في الاعتقاد وأتباعهم في ذلك الوقت ، فَالتَفَ من حوله النّاس مُسْتَجيبين لدعوته ، وَرَاح يَتَنَقل من مكان إلى آخر . ومَا ارتحل منْ موضع إلاّ خلّف فيه أتباعا ... تكاثروا مَعَ مرور الأيّام والأعوام حَتّى صارَ لهم شأنٌ ، وأضحوا يُمَثلُون قوّة يُقْرَأ لَهَا ألفُ حِسَاب .

ومن إفريقيّة انطلق شابان إباضيان ـ بعد أن تلقيا المباديء الأولى للدّين والمذهب على يَد سلمة بن سعد ـ انطلقا إلى العراق ضمن بعثة تضمّ عددا من الإباضيين سواهما ، فقضيا سنين في طلب العلم على يد إمام المذهب في ذلك الوقت أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة . فالطالب الأوّل من القيروان ، وهو عبد الرّحمان بن رستم ، أمّا الثّاني فهو أبو داود من الجنوب . ولَمّا أتمّا الطّلب ، واكتمل عندهما

(3) يقول التيجاني في رحلته : 185 واصفا جبال الاطلس التي تمتد من برقة الى المحيط الأطلسي : «وهو من بدئه الى منتهاه مخصوص بسكني البربر وبه كل طريفة من الثمار وغرائب الاشجار والماء ينبع منه في مواضع معروفة ....»

العلم ، واطمأنّ لنباهتها إمامها أوْصَاهُمَا خيرا ، ثمّ سَرّحَهُمَا عائدين إلى موطنها . فكان لأبي دَاود شأنٌ في عالم الإصلاح ، إذْ تَفَرّغ للجهاد الدّيني والعلمي ، فأنشأ بجهة نَفْزَاوةَ وسواها من جهات الجنوب جيلا إسلاميا فاضلا في خُلقه ودينه ، كان البذرةَ الصّالحة لما تبعته من أجيال تمسكت بالسنة والفضيلة ، وقاومت البدَعَ والرذيلَةَ .

أمّا عبد الرّحمان بن رستم فقد نَبغَ في العِلْم والإجتهاد درجة بهرت أبا عُبَيْدةَ أستاذَهُ حتّى أجازَ لَهُ حقّ الفتوى بما سمع منه وما لم يسمع . وبذلك كان قد اختاره لإمامة المَذْهَب ورَيثا وَحَافِظا .

لكن شاءت الأقدار والأحداث السيّاسية أن يَجْمَعَ عبد الرّحمان ابن رستم إلى جانب ذلك مُهِمّةَ الاضطلاع بأعْباء الحكم والسياسة ، ذلك أنّ ظُلْم الولاة قد اشتدّ بإفريقية بعد ابن أبي المهاجر المُوَلّى من قِبَل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وأكْثَرَ رجالُهم من السّلب والنّهب ، واستباحوا الحُرَمات ، حتّى ثارت القبائلُ البربريّة في وجوههم ثوْرَات عديدة ، اشتدّ ساعدها بنزوح الخوارج من الصفرية إليهم ، فانقلبت إلى حروب حقيقيّة طَاحنة ، خَاضها العُمّالُ أنفسهم ، وقادوا جيوشها ضدّ الخوارج بأقصى المغرب وأوسطه دون جدوى ، إذ كانت الهزائم تلاحقهم حيثما هَجَمُوا وأينما حلوا .

وقد كان المسؤولَ الأوّل عَنْ هذه الفتن ، ومُوقِدَ نِيرَانِهَا العامل عُبيدُ الله بن الحبحاب المُولى من قبل هشام بن عبد المَلك . يقول ابن عذاري : «وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة (المَدغري) أنّها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سُوءَ سيرته كما ذكرنا ، وكان الخلفاء بالمشرق يَسْتَحبونَ طرائفَ المَغْرب ، ويبْعَثُون فيها إلى عامل

إفريقية ، فَيَبْعثون لهم البَرْبريّات السنيات ، فلمّا أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مَناهُمْ بالكثير ، وتكلّف لَهم أو كَلَّفوه أكثرَ ممّا كان فاضطُرَّ إلى التعسّف وسوء السيرة ...»[4] . وإذا أضفنا إلى هذا ما قام به عامِلُه بطنجة من تَخْميسه للبربر ، زَاعِما أنّهم فَيء للمسلمين[5] ، عَرَفنا السَّبَبَ الّذي مِنْ أجله ثار البَربرُ يَقْدُمُهُمالصفري مَيسرةُ المَدْغري[6] .

وتتابعت الحروب بين البربر وولاة القيروان عنيفة شديدة ، أزهقت فيها أرواحُ مئات الآلاف من المسلمين ، وانتُهكت فيها الحُرُماتُ ، واسْتُبيحت النساء من الطرفين المتقابلين حتّى كأن القوم ما عرفوا الإسلام ، ولا طرقت أسماعَهم مبادىء الإخاء والتّناصح ، والأمر بالتّناصُر والتّسامح في كتاب الله وسنّة نبيه الهَاديَة .

☆ ☆ ☆

وتأتي السنة 749/132 فَتَنْهَار الدولة الأموية لتقوم على أنقاضها دولة بني العبّاس ، ولئن تغيّرت أوضاع الحكم والسياسة بالقيروان ، فأصبح الولاة يَفدون إلى إفريقية من العراق بعد أن كانوا يُعَيَّنون من قبل السلطة بالشام فإنّ الأغراض السيّاسية بقيت على ماهي عليه والنّوايا نحو مسلمي المغرب باتت على حالها لم يتغيّر منها شيء . ونتيجة لذلك تواصلت المقاومة البربرية ، وتتابعت الثّورات أشد ضراوة . وما كان لها أن تتوقّف ، وقد أضْحَتْ حُروبا

(4) ابن عذارى ، البيان المغرب 1 : 52 .

(5) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(6) كانت ثورته سنة : 740/122 .

لاَ ضـدَ الظلم المسلّـط وكفى بـل حروبـا عنصريّـة يرمي الجنس البربري من ورائهـــا إلى القضـــاء على الجنس العربي ، وعلى حكم القريشيين خصوصا .

وننتقل بالأحداث سريعا إلى سنة 755/138 لنربطها بالأحـداث التّي تعنينا والتّي لها علاقة بأصل موضوعنا . زحفت في هذه السنة بعضُ القبائل الصّفرية على إفريقيّـة ، فتغلّبوا عليهـا ، واستولوا على مدينةالقيروان ، «وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وقتلوا كلّ من كان من قريش[7] ،وعذبّوا أهلها وأساءَتْ ورفجومـة لأهل القيروان سُوءَ العذاب ...»[8] .

والغريب في الأمر أن أهـل القيْروان أنفسهم الـذين بعثـوا إلى الـورفجوميـة يَسْتَعْدُونهم على الـوالي حبيب بن عبـد الرحمـان بن حبيب الفهري الّـذي طغى ، وأطلـق يـد أعوانـه وجنـده يسلبـون وينهبون ويسومون النـاس سـوء العـذاب . ولّما حصـل لهم على يـد الورفجوميّة ما جعلهم يندمون اسْتَنْجَدُوا بـأبي جعفر المنصور حسبَ بعض الروايات ، وبأبي الخطّاب المُعافري إمـام الإباضيـة بطرابلس استنادا إلى رواية أخرى .

والظـاهرُ أنّ أهـلَ القيروان ، وَقَـدْ ضـاع عنهم رشـدُهم وانخَرمت صفُوفهم بفَقـدهم لقيـادة شعبيّـة يقـوم بهـا شخصٌ منهم فيـوجهُهم إلى أقـوم السـبـل ، ويجنبُهم الارتجـالَ والتصرفـات الطـائشـةَ التّي تعـودُ عليهم بالوبَال ، الظّاهر أنّهم قد وَجـدوا في شخص عبـد الرحمـان بن

---

(7) وقتلوا كل من كان من قريش . يلاحظ هذا !

(8) ابن عذارى ، البيان المغرب 1 : 71 .

رستم قائداً رشيدا وزعيما بصيرا في هذا الظرف الخطير من حياتهم . كان عبد الرحمان متباعدا عن السيَّاسة مُنْكبا على التَّعليم والتبصير بالدين ، فحرّكته هذه الأحداث ، وهزته النَّكبة التّي حلّت بالقيروان هزا عنيفا فنهض لِمَحق الظلم وتطهير الأرض من إثم الحاكمين وعبث المُفْسدين ... فبادر يستنجد بزميل له في حلقات الدّروس بالبصرة سابقا ، قاوم ظلم الولاة من بني العبَّاس بطرابلس ، فدانت له البلاد ، واختارته إماما عليها لعدله واستقامته . هذا هو أبو الخطَّاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، فهبَ لأداء الواجب الذّي يفرضُه عليه التَّعاطف الأخوي ويُحتمه مَبدأ من أهم المبادىء لمذهبه ، ألا وهو مقاومة أولي الأمر بالسيف ، واستباحةُ دمائهم إذا الخطَّاب في جيش عظيم تطوع لإقامة العدل ومحق الفساد والظلم الذي اقترفه عاصم الورفجومي[9] وأتباعه ... فكان له النَّصر .

ثمّ بعد أنْ أمَّنَ النَّاسَ حافظا أرزاقهم وأعراضَهم ولّى على القيروان عبدَ الرحمان بن رستم ورجع إلى طرابلس . ودامت ولايةُ ابن رستم سنتين اثنتين[10] ، ذاق المسلمون فيها بالقيروان وبإفريقيَّة كلها طَعَم الأمن وعرفوا معنى العدل ، وأدركوا لأوَّل مرّة تقريبا طعْم العيش الكريم في ظلّ الحكم الإسلامي النظيف . لكن لم تمض مدّة طويلة بطرابلس ، ثمَّ تَغَلَّبتْ على ابن رستم وأخرجته من القيراون ، واستعادت إفريقيَّةَ لسلطة بني العبَّاس كما كانت . وارتحل

---

(9) يذكر صاحب البيان المغرب 1 : 317 ان «من جملة من ولي القيروان» الصفريان ـ عاصم الورفوجي وعبد الملك بن الجعد وكانت مدتها سنة واحدة وشهرين» .

(10) نفس المصدر والصفحة .

ابنْ رستم إلى المغرب الأوسط حيث هيَّأ الأسْباب وأعَدَّ العدّة لإقامةدَوْلة . وما عَتَّمَ أنْ أنشأ دولة إباضية بتاهرت[11] ، أخذت على عاتقها تركيز الدّين في نفوس النَّاس على قواعد راسخة ، وتطهيره ممَّا علق به عن طريق أصحاب البدع من الصفرية وأرباب الحكم من الولاة والعمَّال الانتهازيين .

وَشَاءت الأحداثُ أن تَنْقرض الإمامةُ الإباضيةُ من طرابلس[12] فأصبحت تاهرت مركز الإمامة . و«كانت أغلبيَّة بلاد إفريقيَّة في الجنوب والوسط تابعة لهذه الإمامة ، وكان عمّال الدّولة الرستمية يقيمون أحكام الله في تلك البلاد نيابة عن الدوّلة الرستمية ... وقد استمرت هذه الجهات تحت حكم الدوّلة الرستميَّة الى أن تغلَّبت عليها الدولة الشيعيَّة فخرّبت تاهرت ، وانقرضت من هنالك سلطَتُها» .

من هَذَا نفهم أن كثيرا من أهل إفريقيَّة من سكَّان المناطق المذكورة كانوا يدينون بالولاء إلى السلطة الإباضية بتاهرت ، أما ولاء سياسيا ، أوولاء مذهبيا ، منذ الزحف الورفجومي علىالقيروان إلى أن قامت الدّولة الفاطميَّة ... ثم استمر ولاؤهم بصفته المذهبيَّة الدّينيَّة ، إذْ أنّ سكَّان الجنوب من إفريقيَّة وإن لم تقم لهم دولة ، فقد كانوا تحت نفوذ مشائخ العلم والعزابة من الإباضية ، لذلك كانوا كأنّهم يمثلون دولة لها سيادتها ولها تنظيمها الإداري والدِّيني ،

---

(11) كان ذلك سنة 761/144 .

(12) كان ذلك على يد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب سنة 772/155 . وقد زحف على افريقية من قبل أبي جعفر المنصور في جيش من جيوش الشام والعراق وخراسان فنزل بطرابلس واستعمل عليها سعيد بن شداد بعد تغلبه على أبي حاتم الأباضي . وكان وصوله الى القيروان يوم الأثنين 10 جمادي الثانيةللسنة : 772/155 .

واستقلالها الذاتي طوال الدّولة الأغلبيّة وما قبلها بقليل وما بعدها . ويكفي دليلا على ذلك ما أشار إليه بعضهم[13] من أنّه كان للمذهب الإباضي مُفْتِيَان اثنان في القيروان في النصف الثّاني من القرن التّاسع الميلادي (منتصف القرن الثالث الهجري) .

وقد قاومهم بنو الأغلب وحاربوهم محاربة لا هوادةَ فيها ، وإن كان لا يعنينا ذكر ما دار بين الدولة الأغلبيّة والدولة الرستمية بتاهرت بينها إنّما هو دافع مذهبي يرى فيه الإباضية أنّهم حماة الدّين والسنّة ، ويراهم أمراء بني الأغلب خوارج متنطعين أصحابَ بدع ، والواقع أنّ الإباضية قد تمكّنت من فرض وجودها التّاريخي ، فحقّقت عزّا دينيا ذا بال بقيت آثاره إلى اليوم في أتباعه الذّين يعيشون بيننا ، التزموا خدمة الدّين ومقاومة البدع والرذيلة ، حازمين في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، كما حقّقت مجدا سياسيا كان له شأنه في تاريخ الإسلام بالمغرب العربي .

وننبه إلى أمر له أهميّته بالنسبة لمن يريد أن يقف على دور الإباضية بإفريقيّة وموقف النّاس منها ، ذلك أنّ كتب التّاريخ في سردها للأحداث التّي جدّت بين ولاة الأمر بإفريقية وبين أتباع المذهب الإباضي تعتبر هؤلاء ثائرين خارجين عن الطاعة بل عن الدّين ، يُنعتون بما ينعت به كلّ متمرّد . وكان أصحاب تلك

---

(13) المصدر نفسه ص : 37 . اقول : ربما كان لهذين المفتيين وجود قبل استلام سحنون مقاليد القضاء . اما في مدة قضائه فلايصح ذلك . لأن الأمام سحنون قداقصى من المسجد الجامع مشائخ كل الفرق الذين كانوا به . وقد تولى سحنون القضاء س : 848/234 . وعلى هذا يكون للاباضية وجود بالقيروان قبل هذا التاريخ . اما في أواخر القرن 9 م . (أواسط 3 هـ) فغير ممكن وجودهم اللهم الا اذا كان ذلك في الخفاء وفي نطاق السرية .

الكتب ـ وهم سنيون مالكيون غالبا - يعدّون الإباضيَّة فرقة كسواها من فرق الخوارج المغالية في المعتقد ، ولا يعنيهم أن يفرّقوا بينها وبين غيرها استنادا إلى ما بدا منها ومن أتباعها من تصرف بَاعدَ بينَها وبَيْن الفرق المبتدعة .

☆ ☆ ☆

أما الكتب التي أُلّفت في تراجم علماء إفريقية وإن لم ترد فيها إشارة ولو طفيفة إلى تسنّن المذهب الإباضي ، فإنّها لم تتعرّض كذلك إلى شتم أتباعه أو الغض من شأنهم ... إلاّ ما جاء فيه عن موقف الإمام سحنون من كافة أصحاب الفرق . وعلى عكس ذلك الصفرية ، فإنّنا نجد في تراجم بعض العلماء بهذه الكتب أنّ فلانا اتهم بالصفرية ، فأعرض طلاّب العلم عن السمّاع منه والأخذ عنه ... أليس في هذا ما يدفع إلى القول بأنّ العلماء بإفريقيَّة كانوا يعتبرون علماء الإباضيَّة سُنّيين مثلهم ، وأنّ جوّا من الوئام والتّعاون كان ربّما يسود علاقات بعضهم ببعض . أظنّ ذلك أمرا ثابتا خصوصا أنّ الإباضيَّة كانوا يؤمون نفس المساجد التّي يؤمها أهل السنَّة ، وَيُمْلُون تعاليمهم بكامل الحرّية إلى جانب المالكيّة في كثير من الجهات بإفريقية .